المحاضرة السادسة

الرواية العائلية:

مقدمة:

يرى "سيغموند فرويد" في نظريتة النفسية أنّ أساس كل كتابة قصصية فنية تعود إلى مرحلة الطفولة، التي يشكل كل واحد منها روايته العائلية، التي ينتجها عندما يكتشف الحياة العامة، فينسج خيوط تجربته الشخصية وسيرته الذاتية من خلال احتكاكه بالعائلة الأبوية . وهذا يقودنا إلى مصطلح العُصاب الذي يعرّفه "فيليب رييف(Philip Rieff " بقوله: " العُصاب هو عجز الإنسان عن الإفلات من قبضة الماضي ومن عبء تاريخه". وقد أشار إليه فرويد في كتابه (تفسير الأحلام) وحاولت أن تبلوره (مارت روبير(Marthe Robert) مؤكدة أنّ أصول الرواية تعود إلى جملة من الرغبات والمحرمات عند الطفل اللقيط واللاشرعي ،وتمرده على وضعه، لكن فرويد استبدل هذا الطرح بآخر في نظرية (قتل الأولاد لأبيهم) أو ما يعرف بعقدة أوديب".

أما الناقد السوري جورج طرابيشي فيرى أنّ مفهوم الرواية العائلية التي صاغها "فرويد "في تحليله النفسي يختلف عن مفهوم نقاد المنهج التاريخي والاجتماعي حيث يقول:"...إنها بالتعريف الفرويدي ،رواية أصول ،لا الأصول التاريخية الفعلية ،بل الأصول المستلهمة ،من المعصوب الأوديبي ،الذي لم ينجز بنجاح عملية نموه النفسي وانفصاله المؤلم عن والديه ،فهو يسعى إلى الانتقام عن طريق استيهامي ،وذلك بأن يتصور نفسه" طفلا أنجب من زواج آخر أو طفلا متبنى". فتصوّر الرواية العائلية بالنسبة لطرابيشي يكون من جانب حضور الأم واتصالها ضمن علاقة إيجابية طيبة أو علاقة صدامية فهو يجمع بين الممارسة النقدية بين نظرتي الرواية العائلية، والرواية الأوديبية خلال علاقة تتأسس بين الابن والأم والأب ،فحال الرواية العائلية يبنى وفق علاقة ثلاثية ،مثله مثل العلاقة الأوديبية ، والاختلاف يكمن أن يكون بمثابة تبادل للمواقع من حيث التقارب والتنافر.

أما حسن المودن فيرى أنّ الرواية العربية شاهدة في مراحلها المبكرة بروز الرواية العائلية ،وهي "بنية ذهنية تحضر في الرواية ضمنيا وتعبر عن علاقة قرابة صريحة أو ضمنية ،كما تضمنت تأصيل مصطلحي "الرواية العائلية" و"محك الانتساب العائلي "بالعودة إلى أصولها في النقد النفسي "،كما تُعد أيضا وسيلة من وسائل التواصل والتعبير عن انتماء الفرد إلى المجتمع وعلاقته بعاداته وتقاليده مشيرا إلى أن روايات مبكرة مثل "رواية زينب لمحمد حسين هيكل وهي رواية مصرية حديثة نشرت في 1913، و"في سبيل الزواج " لمحمود أحمد السيد ،العراق"،كانت روايات عائلية .واستمر حضور العائلة في الرواية ليتخذ أشكالا أكثر تفصيلية وأكثر رمزية في روايات كثيرة معاصرة مثل رواية الحفيدة الأمريكية للروائية العراقية إنعام كجه جي ،ورواية بابا سارتر لعلي بدر وغيرها.

أولا - التحليل النفسي عند جورج طرابيشي:

يُعد الناقد جورج طرابيشي من أبرز النقاد العرب المعاصرين الملتزمين بمجال النقد الأدبي النفسي في ميدان الرواية، وقد كان اهتمام الدراسات النقدية السابقة منصب على الشعر في تحليلها لشخصيات شعرية تراثية كما هو الشأن مع العقاد في دراسته لأبي نواس ،وابن الرومي ، وكذا الدراسة البارزة للنويهي الموسومة بـ:(ثقافة الناقد الأدبي) التي حلّل فيها نفسية بشار " و"نفسية أبي نواس" ،دون أن ننسى يوسف اليوسف في كتابيه (مقالات في الشعر الجاهلي)و (الغزل العذري)..وآخرين مثل عز الدين إسماعيل ،ومصطفى سويف.

لقد ألّف جورج طرابيشي في المسار النقدي عددا كبير من المؤلفات أهمها :" (الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية) 1973،(شرق وغرب ،رجولة وأنوثة) و(الأدب الداخل)1978، (رمزية المرأة في الرواية العربية)1981،(عقدة أوديب في الرواية العربية)1982 ،(الرجولة وإيديولوجيا الرجولة) 1983،(أنثى ضد الأنوثة)، (الروائي وبطله،مقارنة اللاشعور في الرواية العربية) 1995. هذه الكثافة من الدراسات المنجزة ،التي تبلورت مسارات متعددة طبعت الأسس المنهجية للناقد، وجعلت دراساته تتباين في مقارنتها بين الحين والآخر ، وأمام صعوبة التطرق لكل الدراسات المشار إليها سابقا، فإننا نختار بعض النماذج من دراساته النقدية النفسية لاستكشاف خصوصياتها وأهم المرجعيات والمفاهيم النقدية التي لها صلة بالمنهج التحليلي النفسي . وقد توصل جورج طرابيشي في تحليله النفسي أن شعور البطل الروائي يحمل مرجعية نفسية ،داخل السياق النصي الذي يتحرك فيه؛ أي أن استقلال لاشعور البطل الروائي يختلف عن صانعه حيث

يقول:" فالبطل الروائي ليس نسخة طبق الأصل عن الروائي، والنسخة،أي ما يمكن حظها من الدقة والمطابقة ،لايمكن أن تدب فيها الحياة؛ وما من شيء يقتل الحياة في البطل كالآلية ، ولهذا لا يمكن تصوره لحال من الأحوال تابعا لخالقه تبعية (روبوتية) سواء في شعوره أو لاشعوره".هذه المقولة قادته إلى انتقاد الدراسات النفسية الكلاسيكية التي قام بها مجموعة من النقاد -أعلام التحليل النفسي- بين اللاشعور لأبطال الرواية ولا شعور الكاتب، معللين ذلك أن ما يصدر من لاشعور البطل الروائي ماهو إلا وثيقة نفسية طبق الأصل من الكاتب . وقد ضاعف طرابيشي أهمية الرهان على اللاشعور في عمليات التلقي والتأويل ،لأن اللاشعور يغلي غليانا في أعماق الفنان، وهو مهدد في أي لحظة بالانفجار، مما يستدعي على الفنان والروائي أن يقوم بعملية التنفيس والترويح ، والسيطرة عليه. وينتقل بنا طرابيشي في كتابه(الروائي وبطله) ،ليقارن بين اللاشعور في الرواية العربية و مستوى أكثر وضوحا في التعامل مع النصوص الأدبية مستعينا بمفهوم لا شعور البطل الروائي ،حيث سعى إلى الفصل بين شخصية الكاتب ،وشخصية البطل الروائي أثناء التحليل سعيا منه للوصول إلى أن التحليل النفسي جاء لخدمة النقد الأدبي ،وأن ينطلق من النص وينتهي إليه دون أي تأويلات أو أبعاد خارج بنية النص.وقد صرح بقوله:" نقطة وصولنا،كما نقطة انطلاقنا هي النقد الأدبي ،وليس التحليل النفسي بين أيدينا إلا أداة منهجية ،ولا ندّعي أننا نقدم كشوفا جديدة في التحليل النفسي ،بل نبغي توظيف كشوف التحليل النفسي في خدمة النقد الأدبي ،ومن ثم فإن الكاتب بحد ذاته لا يعنينا بكثير أو بقليل ،ونحن لا ندعي إطلاقا المماهاة بين الروائي وبطله ،وتجسير الهوة بين لاشعور كل منهما ،ولا نزعم ،على الأخص أننا نقرأ النص الروائي على أنه ضرب من السيرة الذاتية للروائي ...فالرواية عمل فني ،والفن في الإنسان طاقة حرية."

ثانيا ـ آليات التحليل النفسي في مقاربة الرواية عند جورج طرابيشي:

لقد طوّر جورج طرابيشي اتجاه التحليل النفسي في النقد الروائي إلى حدّ كبير،في وقت عرف فيه النقد العربي عددا محدودا من النقاد الذين تناولوا المنهج النفسي في النقد الأدبي العربي الحديث ،أمثال عباس محمود العقاد ومحمد النويهي وعز الدين إسماعيل ومحمد أحمد خلف الله (مصر) وسامي الدروبي (سورية) ومصطفى سويف وشاكر عبد الحميد (مصر) وزين الدين المختاري (تونس) وخريستو نجم (لبنان) وعبد القادر فيدوح (الجزائر) حسب التسلسل التاريخي لصدور مؤلفاتهم، وهم في غالبيتهم، لم يوظّفوا غير النزر القليل من المنهج النفسي. أما جورج طرابيشي فقد ثمّر التحليل النفسي من داخل النصوص الروائية كلما بعد عن مباشرة التحليل الاجتماعي وأدلجته. وقد أضفى طرابيشي بعض النقاط الهامة في التحليل الروائي من منظور نفسي وهي كالآتي :

- إضاءة المبنى الروائي من داخل النص عبر التحليل النفسي، مع تجنّب ربطه المباشر بذات الروائي أو بأفكاره المعلنة في التصريحات والحوارات.
- تحقيق توازن منهجي بين الوعي واللاوعي في بناء الرواية، مع تركيز خاص على تحليل اللاشعور في بعديه الذاتي والجمعي.
- دمج الأنساق الاجتماعية والسياقات التاريخية في التحليل النفسي للرواية بوصفها عناصر بنيوية فاعلة، لا معطيات خارجية منفصلة عن النص.
- تدعيم المقاربة النفسية بمناهج نقدية مساندة مثل التأويل والأسطورة والترميز، بما يسهم في تعميق الدلالات الفكرية والقيم المعنوية في الخطاب الروائي.
- العناية بالقيم الفنية والجمالية عند مقاربة العلاقة بين الذات الروائية وذات الروائي، بوصفها منبعًا لتشكّل النسق القيمي والجمالي في العمل الروائي.

ومن خلال مجموعة من الدراسات التي قام بها جورج طرابيشي يتضح لنا ما يشبه القطيعة المنهجية والمعرفية مع الدراسات النفسية السابقة ،التي تدرس الأعمال الروائية دون أن تنأى بعيدا عن دائرة التأويل الذي يدور في فلك الإشارة ،إلى ارتباط النتائج بصورة أو أخرى ببيوغرافية المؤلف .لقد حسم الناقد الأمر بتوجيه مسار التحليل النفسي إلى استقراء العمل الروائي ،بوصفه انجازا جماليا تخييليا لا يتصل مباشرة بمبدعه .ولذلك تم التركيز على الدراسة النفسية للشخصيات الروائية وعلى الراوي بصورة أكبر دون العودة إلى العوامل الخارجية التي يستعان بها أثناء التحليل.

وفي الأخير يمكن أن نقول إن المنهج النفسي الذي طبقه الناقد جورج طرابيشي على الأعمال الروائية ،مستعينا بمصطلحات علم النفس ،يهدف من خلاله إلى تحليل الشخصيات الروائية، إلا أنّ الكثير من النقاد عارضوا هذا المنهج

باعتبار أنه لا يخدم النص الروائي العربي، ومن هؤلاء النقاد محمد مندور الذي حذر من "إقحام مصطلحات علم النفس في الأدب ،رغم أن هذا العلم قد ساعد في فهم نفسية الكتاب وتحليل الشخصيات الروائية التي يخلقها أولئك الكتاب لأن الإصلاح العلمي عندما ننقله في الأدب لا يلقي غير ضوء كاذب بل قد يحدث أن يلقي ظلمه."